كنز المتأدب(١)

(١) ابتكار المعاني

وكما ان الشعر يعيبه الاغراب غير المقبول والتوعر في استخراج المعاني وعرضها في قوالب غير طبيعية مما قدمنا امثلته يعيبه ايضاً جفافه وبهوسته اي حرمانه المعاني المستحدثة الجميلة والتصورات الشائقة . وكذلك اشتمالهُ على المعاني والتصورات المبتذلة التي اصبحت رثة مملولة لطول عهد الناس بها وان كانت في صباها عند بروزها من قرائح اصحابها الاولين ذات نضارة ورونق . فعلى الشاعر ان يحترز من كلا العيبين . وقد نبهنا نحن على ذلك في بيتين عنوانهما « كيف يجب النظم » وهما :

اذا رمتَ سطح الشعر فاتك عذبه وان غصتَ حتى القعر فالوحل والعلقْ

هو الشعر نار الفكر تضمن نضجه ولكن متى اجتازت بهِ حدها احترقْ

ولا تظن ايها الطالب ان ايراد المعاني الجديدة امر مستحيل او شديد الصعوبة كما يزعم كثيرون قائلين أن القدماء لم يتركوا للمتأخرين مجالاً جديداً حتى قال عنترة

---

(١) اسم كتاب لصاحب التوقيع اقتطفنا منه هذه المقالة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العبسي منذ اربعة عشر قرناً «هل غادر الشعراء من متردم» . فكيف بمن يحاول استنباط معنى في زماننا الحاضر . وان كانت قد بقيت فضلة عن الاقدمين الذين سبقوا عشرة فلا شك ان الشعراء الذين عاصروه والذين جاؤوا بعده بقليل استنزفوها ولم يبقوا لنا منها قطرة .

هذا ما يدعيه ويتناقله حزب الجمود امّا عجزاً واما كسلاً وهم عن الصواب بمراحل . نعم ان الابتكار المحض قليل وقوعه ولكنه غير معدوم . والجانب الاكبر من المعاني الاصلية كان ولم يزل مستقراً في اذهان جميع الناس . وانما التفتَ اليه الشعراء لفتة خاصة فأوردوه في شعرهم وكسوه من الالفاظ حللاً جميلة فنسب اليهم . وهم لم يفكروا فيهِ ولا تصوّروه قبل سواهم . مثل تشبيه الطلعة الحسنة بالشمس والقمر . والحزن الشديد بالنار الآكلة . وهمّ القلب بسواد الليل . والشجاع بالاسد . وسرعة السير بالطيران . ومثل استطالة القصير من ساعات الشدة والبلاء . واستقصار الطويل من ايام الانس والسرور . الى كثير من امثالـــ ذلك مما توحي به الغريزة البشرية وتدل عليه احوال المعيشة .

واما الجانب الاصغر من تلك المعاني تشبيهاً وغير تشبيه فلا ينكر ان لفحولـــ الشعراء واسبقهم امرؤ القيس هم اصحابه دون سائر الناس . فالابتكار المحض قليل الوقوع في كل زمان لا في زماننا وحده . وقد ذهب فريق الى انـــه مستحيل تماماً باعتبار ان كل معنى نسميه مبتكراً هو عند التحقيق غير مبتكر لانه يستند الى جرثومة فكر سابق وجوده . مألوف في الاذهان . وعلى الوجه المذكور نرى هذا المذهب حقاً ونستنتج ان كل ابتكار هو من التوليد الآتي معنا ذكره على اختلاف في درجات بعده عن الاصل المولّد منه .

(٢) التوليد

فالتوليد هو اغزر واعذب منهل يلجأ اليه الشاعر المجيد وعليه معوله الاكبر وبه تظهر مزيته وقوة شاعريته . وحقيقتـــه ان يعمد الشاعر الى معنى مبتذل تجاذبته الاقلام قبل قلمه فيخرجه عن ابتذاله بنكتة جديـــدة يضيفها اليهِ او بزيادة حسنة يحليهِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بها . ويكون المعنى الاصلي نفسه قد ساعده على التماس ذلك الفرع المستحدث لوجود علاقة بينهما . واليك على ذلك امثلة كثيرة تجلو لك المراد من هذه الارشادات وتمهد لك سبيل الانتفاع بها .

من المعاني المبتذلة عند الادباء تشبيه خدود الحسان بالرياض . وبكاء المحبين لفراق او هجر يصيبهم بالمطر . وقد نظر كمال الدين ابن النبيه الى ذلك ورأى امكان الجمع بين هذين المعنيين الباليين والباسهما ثوباً قشيباً . فجعل جفونه الباكية تسقي رياض الخدود وقال :

ورأينا تلكَ الخدودَ رياضاً فجعلنا لها الجفون غماما

والتفت ناصح الدين الارجاني الى النزاع الذي يقيمه رصفاؤه بين القلب والعين في تأثير الحسن ونتائجه . وهو معنى مبتذل . فادخل عليه طلاوة الجديد بلوم العينين لانهما خصمان يبارزان خصماً واحداً فقال :

اعينيَّ كفّا عن فؤادي فانه من البغي سعي اثنين في قتل واحدِ

وتبعه ثالث في هذا الاسلوب وزاد عليهِ بأن اخرج عجز البيت مخرج المثل فقال:

لا تحاربْ بناظريك فؤادي فضعيفانِ يغلبان قويّا

ورأى شاعر رابع ان تشبيه بهاء الممدوح بالشمس والقمر وان اصبح مملولاً مكروهاً لكثرة وروده يمكن استحسانه اذا اورد على شكل يوهم الفكاهة بعد مقدمة جدية فقال :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وابو اسحاق والقمرُ

واراد حافظ افندي ابرهيم ان يخاطب اللورد كرومر معتمد انكلترا ورئيس الاحتلال الانكليزي سابقاً في مصر ويخبره ان رجال القضاء من قومه حكموا بالموت في غيابه على اربعة مصريين في حادثة دنشواي (اسم القرية المصرية التي حدث فيها شجار بين اهلها وبين بعض ضباط الجيش الانكليزي) فنفّروا قلوب الامة المصرية من الدولة المحتلة . فاخرج ذلك مخرجاً جميلاً اذ جعل الحب الذي زالَ من قلوب المصريين قتيلاً خامساً للقتلى الاربعة الآنف ذكرهم . وزاد على ذلك ان هذا القتيل الخامس هو ما كان اللورد يحرص على سلامته وانمائه . فقال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طاحوا باربعة فأردوا خامساً هو خير ما يرجو العميد ويطلبُ
حبٌّ يحاول غرسه في انفسٍ يجنى بمغرسها الثناء الطيبُ

واراد شاعر «وهو على ما اتذكر جمال الدين بن مطروح» ان يقول لممدوحهِ إن صفاته الحميدة دعته الى مدحه فاخرج ذلك بهذا الاسلوب اللطيف :

فلا حمد لي في ما اقول وانما كتبتُ الذي املت عليّ فضائلهْ

واستعان المؤلف بهذا الاسلوب وزاد عليه من عنده ما اقتضاه المقام فقال مخاطباً السلطان العثماني عبدالحميد الثاني على أثر خلعه وافرار الحكم الشوروي في السلطنة :

وليس التشفّي شيمة الحرِّ انما ارى عبراً تملي الذي انا كاتبه
وان رام ان يبدي لساني شماتة فماضيك يغريه وقلبي يعاتبه

واراد «اي المؤلف» ان يذكر زمان اللقاء والصفاء ويصف ساعاته بالقصر مما تداولته السنة الخاصة والعامة فأورده باسلوب جديد يخفي رثاثة اصله . اذ قال انه تعلم البديع من حسن ذلك الزمان فأتقن الفن المذكور . وقصّر في علم الحساب لعده الساعات دقائق . وهذا النظم :

زمنٌ تعلمتُ البديع بحسنه حتى به اصبحتُ اقدر حاذقِ
لكنني قد كنتُ اضعف حاسبٍ اتوهم الساعات بضع دقائقِ

واراد ايضاً ان يقول لصديق له ان فؤاده مأواه وهو معنى مبتذل فاخرجه من ابتذاله بان قال ان عينه تنم على ذلك جاعلاً العين نافذة الى القلب مبرهناً بانه يطل منها على انسان «وانسان العين سوادها الاصغر» فجاء النظم هكذا :

امسي فؤادي لك البيت الامين وان طلبتَ مني على دعواي برهانا
فهاكَ عيني لهذا البيت نافذةً اطلَّ منها عليهِ تاقَ انسانا

واراد ان يهنىء برأس السنة الجديدة صديقاً آخر ويخبره ان شوقه اليهِ يؤلم فؤاده فجعل الشوق حرباً قضى على سلام فؤادهِ وراحته . فهو لا يهدي السلام لحرمانه اياه قائلاً :

على العام الجديد اليكَ يهدي — الفؤاد جديد تهنئةٍ وحبِّ
ولا يهدي السلامَ فذاك منه بحرب الشوق مات وفاك ربي

وتناول في اوائل قصيدة غزلية عدة معانٍ مبتذلة وعالجها بالتوليد عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طريق الادماج . والادماج ان تحرص على ذكر شيء فتوهم انك لم تذكره الا متابعة لذكر شيء قبله فكأنك ادمجتَ الثاني في الاول اي ادخلته فيه » . اما تلك المعاني التي عالجها فهي تشبيه اللواحظ بالنبال فزاد عليها ان قلبه كنانة للنبال . وتشبيه القامة بالغصن جاعلاً الشوق ثمرة ذلك الغصن . واشار الى جامع الحلاوة بين المبسم وبين الوعد والوفاء ثم الى جامع الضيق بين المبسم وعقل الوشاة . ثم تطرق الى ذكر احتياجه الى النوم واشتهائه له وابتعاده عن السلو بهذا الاسلوب قائلاً :

لواحظه نبل وقلبي كنانة وقامته غصن لي الشوق ثمرُ
ومبسمه احلى من الوعد والوفا واضيق من عقل الوشاة واصغر
وارضاؤه اشهى اليَّ من الكرى وابعدُ عني من سلوي واعسرُ

واراد ان يقول في قصيدة اخرى انه وقف باطلال الاحبة فكان جسمه بالياً كالطلل من فرط الهم والغم وقلبه ثابتاً على حفظ العهود . فزاد على هذه المعاني المطروقة ان وقفته كان يصحبها الاضطراب كوقفة الجبان في ساحة الحرب . وان قلبه كان كالحصن لحفظ العهد اي ضد جسمه الذي جعلته الآلام كالطلل . والنظم هو :

وقفنا على اطلالكم بعد بعدكم كما يقف الرعديد في ساحة الردى
واجسامنا تحكي الطلول وان يكن حشانا لحفظ العهد حصناً مشيداً

واراد ان يهدي سلامه ورسمهُ الى صديق غائب فلم يكتف بما سُمع مثله كثيراً من ان سلامه عطري بل نسب عطره الى طيب ذكر الصديق . ولا بان الشوق اضعفه بل اثبت ذلك بقوله ان الضعف بلغ منه مبلغاً حمل معه على الورق الى صديقه وقد ساعدته واقعة الحال على ذلك الى ان حمل رسماً على الورق مما جعل المبالغة مقبولة واليك النظم :

انيس النفس ذكرُك باتَ مسكي ومنه عطر تسليمي عليكا
حملت الشوقَ ثمَّ ضعفت حتى حُملتُ به على ورقٍ اليكا

واحتاج ان يقول في قصيدته بانقلاب الحكم العثماني « وقد مرّ بيتان من هذه القصيدة في الفصل الحاضر » ان جيش الحزب الدستوري الذي زحف على الاستانة لفتحها كانت غايته انقاذ الامة العثمانية من المظالم والامة يومئذ خافقة القلب في انتظار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النتيجة بارقة العين بريق الامل . فجعل زحف الجيش الى الموت لاجل احياء الامة مسمياً انقاذها من المظالم حياةً : وقرن خفوق قلوبها بخفوق الوية الجيش . وبريق عيونها ببريق سيوفه قائلاً :

وما انسَ لا انسَ العرمرَم زاحفاً الى الموت كي يحيي شعوبا بقاسيهِ
وقد خفقت احشاؤها وبنوده كما برقت ابصارها ومواضيهِ

واراد ان يقول في رثاء المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجي ان الفقيد سلا احبابه وبعدَ عنهم وان مريديه سيحفظون عهده فأورد ذلك بهذا الاسلوب :

فيا مَن سلا الاحباب عن غير جفوة وامسى على قرب المزار بعيدا
خذ اليومَ منا صادقَ العهد اننا سنذكر اياماً مضت وعهودا

وفي قوله بالبيت الثاني « انه يعاهد الفقيد اليوم على ذكر عهوده وايامهِ الطيبة » نظرة الى قول ابي الطيب المتنبي :

اذا غدرتْ حسناءُ وفَّت بوعدها فمن عهدها أن لا يدوم لها عهدُ

وقد استعمل ابن النبيه هنا القالب بعد ذلك فقال : وهو يقصد احبته الغادرين به :

عَرَبٌ رأيتُ اصحَّ ميثاقٍ لهم أن لا يدوم لعهدهم ميثاقُ

ثم استعمله المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية سابقاً في كلمة مأثورة عنه هي هذه :

« اتفق الشرقيون على ان لا يتفقوا »

واراد المؤلف في رثائه الكونت الفيلسوف المحسن تولستوي الروسي ان يذكر عطفه على المساكين واتخاذه زيهم وتواضعه في العمل بالحقول مثلهم ويشير مع ذلك الى رفعة مقامه وتخوف مليك البلاد وانصاره الكبار منهم فقال ضامناً الى كل شيء مناسبة لطيفةً له تجعل حرارة في برودة المعنى الاصلي :

فيا من باكواخ المساكين مولَعٌ ليهنئك ان هابت علاك قصورُ
ويا لابساً زيَّ الفقير جعلته وفي جنبه زيُّ الملوك حقير
وياحاملاً في الحقل فأساً ومنجلاً حسامُ اعز القوم عنك قصيرُ

واراد في قصيدة تشوق وتودد ان يقول : «ان ايام اللقاء كانت ايام هناء لم تقصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في انالتنا ما نتمنى » فعالج ذلك حتى اخرجه كما يأتي :

سقياً لايامنا ما كان اهنأها كأنها اكتسبت من طبعكم لينا

سمحاء ما قصّرت في منية معنا بل ربما قصّرت عنها امانينا

فان في كل من العجزين زيادةً حسنةً زانت المعنى الاصلي . ثم اراد ان يقول في ليالي الفراق الطارئة انها ليالٍ مكروهة يشتهي تحولها . وهو قول لاكته الالسن كثيراً حتى سئمته النفوس فالتمس وسيلة قبول له باشارته الى ان تلك الليالي على كراهتها محسوبة على الكاره المفارق من عمره فقال :

نقضي الليالي معشوقاً تحولها كأنما العمر ما منه لياليا

...

ومن هنا نرى ان للتوليد فضيلة وحلاوةً تعادلان فضيلة الابتكار وحلاوته . كما ترى انه ليس متعذراً ولا شديداً على من يطيل نظره في كتب الادب ويروي نتفاً صالحة من جيد المنثور والمنظوم ويمارس هذه الصناعة الشريفة بانتباه وثبات . بل على الاديب ان لا يقبل من نظمه الاّ ما كان كله اوجله مزداناً باساليب جديدة ومعانٍ مولدة واذا حرمت بعض ابيات من القصيدة طلاوة الجديد فلا اقل من ان يجعل شفيعاً لها في القبول التركيب المنسجم واللهجة الطبيعية .

والتوليد الذي اردناه في هذا المؤلف أوسع واعمّ من التوليد المذكور في كتب البديعيين . وقد تدخل امثلة من عدة انواع بديعية كالايغال والاستطراد وسلامة الاختراع وغيرها في التوليد الذي بسطناه هنا .

ولا شك ان ما مرّ وما سيمر بك من الامثلة الكثيرة على كيفية تصوير الافكار والتلاعب بالمعاني وتنويع قوالبها اللفظية يجلو لك تماماً معنى قولنا في اول الفصل السابق : ان الشاعر لم يسمَّ شاعراً الاّ لانه يشعر بما لا يشعر به سواه من المناسبات الدقيقة بين الاشياء احد اعضاء المجمع العلمي العربي

ادوار مرقص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net